الدكتور الطاهر أحمد مكي

دكتوراة دولة بامتياز من جامعة مدريد
أستاذ الأدب في كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

دراسات عن ابن حزم

وكتابه "طوق الحمامة"

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية بعابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانية :
ربيع الأول ١٣٩٧ — هـ
مارس ١٩٧٧ — م

الإهـــداء

إلى والدىّ ، فى رحاب الله . . .

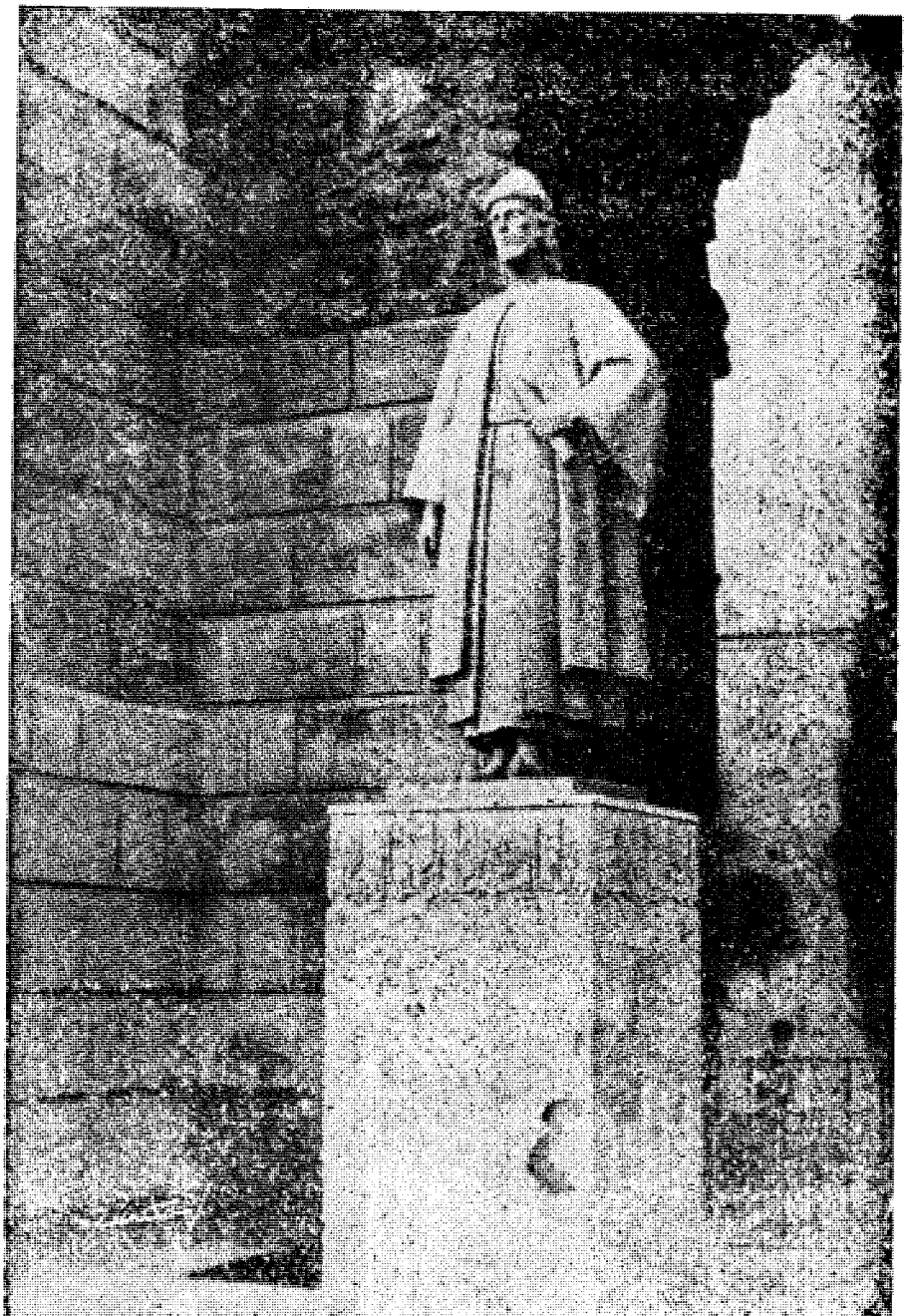

تمثال ابن حزم ، أقامته بلدية قرطبة عام ١٩٦٣م ، أمام باب أشبيلية ، أو العطارين ، وكان يؤدى إلى بلاط مغيث ، الحى الذى نشأ فيه ابن حزم ... من هنا كان طريقه اليومى إلى المسجد الجامع ، طالبا ، وأستاذا ، أو للصلاة !

كلمات فى البدء

كان مقدراً لهذه الدراسة أن تكون مقدمة لكتاب « طوق الحمامة » ، لابن حزم ، وقد حققته ، وصدرت طبعته الأولى عن دار المعارف منذ شهور ، ونفدت ، وتصدر الطبعة الثانية منه خلال أيام .

لكننى وجدت المقدمة طالت ، ووجدتها تتجاوز حجم الكتاب نفسه ، ولم أرد أن اختصرها لأنها دراسة للطوق ، ومقدمة له ، وتعريف بصاحبه ، ودراسة الطوق يجب أن تتناول ، على الأقل ، الجوانب الهامة فيه ، وما أكثرها ! ، والصفحات التى تمهد له ، وحياة كاتبه ، تعينان القارىء على تصور جوه ، وتسهمان فى تذليل صعابه ، والكتاب حافل بها .

لقد تصورت فى البدء — مثلا — ألا حاجة بى لأن أكتب عن عمران قرطبة ، الشوارع والميادين والحياة والناس ، ثم وقعت عينى على كتاب للدكتور زكريا إبراهيم بعنوان : « ابن حزم الأندلسى » ، وصدر فى سلسلة « أعلام العرب » فأدركت على الفور ، من النظرة الأولى فيه ، أن جهله بتخطيط مدينة قرطبة ، أوقعه ، كما أوقع ناسخ مخطوطة الطوق الوحيدة قبله ، وكل الذين نشروا الكتاب بعد ذلك ، فى خطأ مريع . تقول الفقرة فى غير نسختنا المحققة ، والتى اعتمد عليها الدكتور زكريا إبراهيم : « ... سألنى يوما أبو عبيد الله محمد بن كليب من أهل القيروان ، أيام كونى بالمدينة ، وكان طويل اللسان جدا ، مثقفا للسؤال فى كل فن ... »

هكذا جاءت الفقرة فى كل الطبعات العربية ، باستثناء طبعتنا المحققة ، واعتماداً عليها مضى الدكتور زكريا إبراهيم يعلق على النص ويستنطقه : « ولكن ابن حزم لم يذكر لنا سبب انتقاله إلى القيروان ، فضلا أنه لم يشر إلى أى اضطهاد وقع عليه من جانب أهل المغرب عموما ، وأهل تلك المدينة خصوصا ، وأغلب الظن أن يكون أمامنا قد رحل إلى القيروان للدفاع عن مذهبه الظاهرى ، ومجادلة الفقهاء وأهل الفرق » . وهذا كلام باطل كله ! . فابن حزم لم يغادر

الأندلس أبدا ، لا إلى القيروان ولا إلى غيره ، ولم يقع عليه اضطهاد من أهل المغرب ، ولا ذهب إليه لينشر مذهبه . وأخيراً فالقيروان فى تونس وليست فى المغرب ، كما وهم الدكتور. ولو كان مؤلف كتاب ابن حزم ، والذين نشروا مخطوطة «الطوق» قبلى ، يعرفون أن كلمة « مدينة » إذا جاءت مرسلة عند الحديث عن قرطبى ، فإنما تعنى الحى القديم من عاصمة الخلافة ، و تميز فى عماره وحياته بملامح خاصة ، ولو عرفوا أن ابن حزم لم يسكن هذا الحى القديم أبدا من قرطبة ، أى المدينة ، لفكروا فى تقويم النص. « والمرية » مما سكن ابن حزم حقا ، أقرب الألفاظ رسما إلى كلمة المدينة ، وليس ثمة شك فى أن هذه تحريف عن تلك ، جرى بها قلم ناسخ المخطوطة الوحيدة جهلا ، لأنه مشرقى على غير علم بأسماء الأمكنة الأندلسية. وهو تصويب يمكن الوصول إليه بشىء من التأمل ، وللحق فإن الأستاذ الجليل الدكتور طه الحاجرى أدرك هذا الخطأ و صوبه منذ أعوام طويلة ، فى كتابه القيم : « ابن حزم : صورة أندلسية » . ولم يقرأ أحد ممن نشروا الطوق هذا الكتاب واستفاد منه .

وكان ذلك دافعا لكتابة الفصل الأول عن قرطبة ، عمرانها وتخطيطها والحياة فيها على أيام ابن حزم ، وألحقته بمصور تخطيطى وتقريبى للمدينة فى القرن العاشر الميلادى ، ودون ادعاء ، يرسم وينشر لأول مرة فى اللغة العربية .

وأمام حياة ابن حزم ، شاهد عصر ، ترددت لحظات ! . لأنى ترجمت كتاب المستشرق الإسبانى العظيم ميجيل أسين بلاثيوس عن ابن «حزم القرطبى» ، وسوف ينشر قريبا ، وفيه الغناء كل الغناء ، ولكنه كتاب موسع وشامل ومتعمق ودراسة مستقلة ، ونحن هنا فى حاجة إلى علامات هادية فحسب ، على طريق حياة ابن حزم ، تعين على فهم « الطوق » ، وليس إلى حياته كلها ، ثم هممت أن أقدم ترجمة للدراسة الجميلة والموجزة التى قدم بها غرسية غومث ترجمته الإسبانية للطوق ، ولكن الرجل يتحدث فيها إلى إسبان ، يكتب لهم أحيانا ماليس القارىء العربى فى حاجة إليه ، ويتجاوز أحيانا قضايا فوق طاقة القارىء الإسبانى غير المتخصص ، ولكنها ضرورية للقارىء العربى ، ومن ثم فقد استهديته

فى دراستى ، وأفدت مما كتب ، وهو يعتمد أصلا على أسين بلاثيوس ؛ دون أن أسير على دربه دواماً .

وقد وجدت الفيلسوف الإسبانى الكبير أورتيجا إى جاسيت (١٨٨٣ — ١٩٥٥) ، وشهرته تتجاوز إسبانيا إلى عالم الفلسفة بأسره ، قدم لترجمة الطوق الإسبانية ، بدراسة مركزة ورائعة ، فآثرت نقلها إلى العربية برمتها ، ليكون لدى قارىء الطوق العربى ، وجهة نظر أخرى غير عربية ، قد يرضى عنها أو يختلف مع صاحبها ، ولكنها مفيدة فى كل الأحوال .

وعن هوية ابن حزم كتب المؤرخ الإسبانى ، الحجة فى دراسات العصر الوسيط ، الأستاذ سانتشيث البرنس (١٨٩٣ —) دراسة مستفيضة ، رد فيها عبقرية ابن حزم إلى خصائص سلالته الإسبانية ، وقد ترجمت هذه الدراسة برمتها أيضاً ، دون تعليق منى أو مناقشة ، ودون أن يعنى هذا موافقتى على رأيه ، لأنى فضلت ، كعادتى فيما أترجم ، أن أترك القارىء العربى حراً ، مطلق الفهم ، فى مواجهة ما يقرأ من نصوص مترجمة ، وأن يبدى رأيه فيها دون تطاول منى . وثمة كثيرون من المفكرين الإسبان المعاصرين يشاركون سانتشيث البرنس رأيه ، ولكنه الوحيد الذى درس القضية ، وعبر عن فكره ، وربما عن فكرهم أيضاً ، فى هذه الدراسة المستفيضة .

أما أن ابن حزم من أصول غير عربية فحقيقة لا نرفضها ، وكان عالم قرطبة العظيم مسلما طيبا ، والإسلام فوق عصبيات الجنس واللون والدم ؛ وأما أنه من سلالة يمكن أن توصف بأنها إسبانية ففيه شك كبير . لأن لفظة « إسبانيا » لحظة الفتح الإسلامى كانت تعنى امتداداً جغرافيا فحسب ، دون أن تكون لها دلالة أبعد من هذا ، قومية أو دموية أو فكرية . والقول بهذا ليس من عندى ، وإنما هى فكرة اهتدى إليها المفكر والمؤرخ الفيلسوف أميركو كاسترو ، وظل يبشر بها طوال حياته (١٨٨٥ — ١٩٧٣) ،

ويرى فى تجاهل الإسبان لها تضليل وتحريف للتاريخ ، وانحراف بسير الثقافة فى وطنه ، وألف فى ذلك كتابا قيما : « حقيقة إسبانيا التاريخية » ، وكانت دراسة سانتشيث ، وكتاب آخر له ، رد على نظرية كاسترو هذه ، ولقد حرم القارىء من فكر أمير كو كاسترو الرائع فى هذه الدراسة التى نقدمها ، لأن نظريته لاتقف عند ابن حزم وحده ، وإنما تتجاوزه إلى القضية فى جوهرها : لمن ينتسب هؤلاء الذين عاشوا فى الأندلس ، على امتداد دولة الإسلام التى ظلت تسعة قرون ؟ وإجمالها غير متاح ، ومن ثم فقد ترجمت الكتاب كله ، وينتظر الناشر ليأخذ طريقه إلى القارىء قريباً .

ورأيت مفيداً إلى جانب ما تناولت من أفكار « الطوق » ودلالاته المتنوعة ، أن أتتبع آثاره فى الآداب التى عايشته ، أو تلته ، فى الأندلس ، فى الأدبين العبرى والإسبانى ، وأن ألقى نظرة على الدراسات المماثلة التى سبقته إلى هذا المنحى فى اللغة العربية ، والتى جاءت بعده وسارت على دربه ، أو أفادت منه ، وترجمت دراسة لغرسية غومث تناولت جانبا من هذه القضية ، وأكملت الجوانب الأخرى التى لم يتعرض لها المقال .

ثم وقفت عند شاعرية ابن حزم ، وأهمية الطوق كمصدر لتأريخ الحياة الأدبية فى قرطبة ، إلى جانب ما يقدم من معلومات أخرى ضافية ، اجتماعية وسياسية ، والمرأة فى قرطبة الخلافة من خلاله ، ولحياة مؤلفه نفسها . وتلك هى الخطوط العامة للدراسة ؛ وما أريد أن أقف عندها تفصيلا ، وفى الفهرسة آخر الكتاب ما يغنى .

* * *

أنهيت هذه الدراسة مع بداية الصيف ، ثم حملتها إلى المراطن التى عاش فيها ابن حزم منذ ما يزيد على ألف عام ، أمضيته بين وليه وإشبيلية وقرطبة والمرية وشاطبة وميورقة ، وغيرها . وفى ضوء ما رأيت على الطبيعة وحياة الناس ، وفيها ما لم يتغير أصلا

أو ما تغير قليلا ، وما استلهمت من روح التاريخ ، واستهديت من حدسي بين هذه المعالم ، صححت وراجعت ، وأضفت وحذفت ، فكانت هذه الصفحات .

قلت وأنا أقدم الطبعة الأولى من تحقيقي « لطوق الحمامة » ، إن النص والدراسة التي سوف أعدها مستقلة عنه ، كمقدمة له ، تربط بينهما أقوى الوشائج ، ولا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر . وأعيد هذه السطور هنا مرة أخرى إبراء لذمتي ، لأن في هذا ما يفسر ذاك ، والعكس صحيح أيضا .

ومن الله الجزاء ، ومنه التوفيق .

قرطبة — الأندلس

شعبان ١٣٩٦ هـ
أغسطس ١٩٧٦ م

الطاهر أحمد مكي

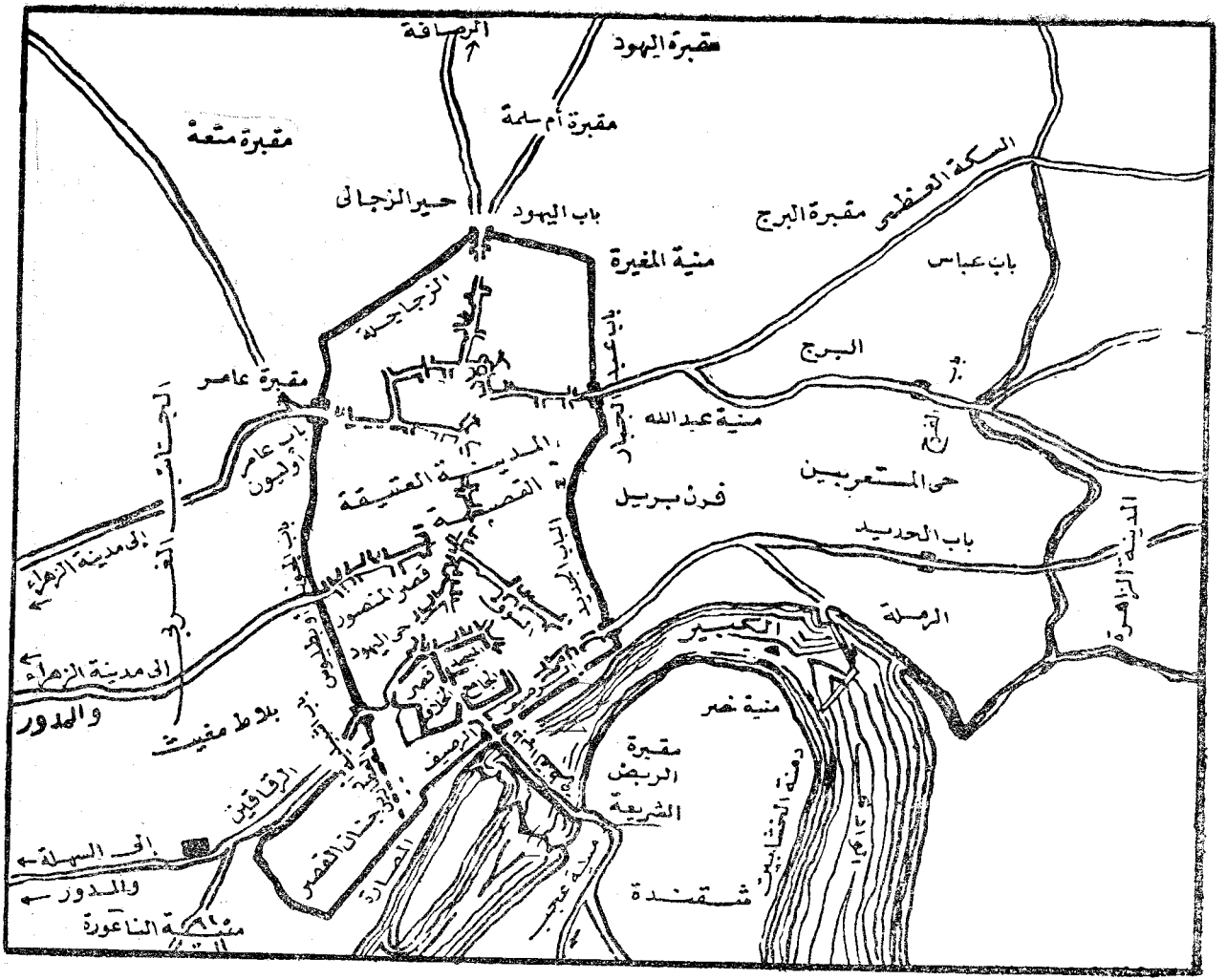

خطط تقريبى لمدينة قرطبة فى القرن العاشر الميلادى

قرطبة على أيام ابن حزم

• السكان :

حين زحف مغيث الرومى ، غلام الوليد بن عبد الملك ، يريد قرطبة عام ٩٢ هـ=٧١١م، وحاصرها حتى فتحها ، لم يدر بخلده ، ولا بخلد أحد ممن كانوا معه ، أن هذه المدينة الصغيرة القابعة فى سفح جبل العروس ، نصف همجية ونصف متبدية، يمكن أن تصبح فى مدى قرنين ونصف من الزمان ، كبرى مدن الأندلس ، موطن الإمارة ، وحاضرة الخلافة ، تنافس بغداد ، وتطاول القاهرة ، وتكسف ماحولها من مدائن ، وتبلغ شهرتها الخافقين ، فتصبح موضع الإعجاب من راهبات منقطعات فى دير منعزل بألمانيا ، وتقول عنها الأخت الشاعرة السكسونية روز فيتا Hroswita فى قصيدة لها : «جوهرة العالم الساطعة ، مدينة جديدة ورائعة ، فخورة بقوتها ، شهيرة بمباهجها ، مزهوة بما تملك من خير وفير ».

ليس من غرضى ، ولا فى نطاق بحثى ، أن أعرض لقرطبة فى طفولتها وتطورها على امتداد القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وغاية ما أطمح فيه أن أعطى صورة مصغرة فحسب ، لجوانبها المختلفة ، خلال القرن العاشر الميلادى ، حين طرق ابن حزم أبوابها وليدا .

كانت قرطبة القرن العاشر الميلادى مدينة كبيرة ، يتجاوز سكانها المليون عددا ، تتحدث العربية ، إلى جانب لغات أخرى ، وتدين بالإسلام ، إلى جوار المسيحية واليهودية ، ويسكنها أقوام ينتمون إلى أصول مختلفة .

كان هناك العرب ، مضريون أو يمنيون ، جاءوا قديما مع موسى بن نصير ، أو مع بلج بن بشر القيسى بعده ، أو فى أفواج قليلة العدد أيام عبد الرحمن الداخل ، وانتشروا فى كل الأندلس ، وأورد لنا ابن حزم معلومات مستفيضة

عن منازلهم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » واتخذ عدد منهم مكانه إلى إلى جانب الإمارة أو الخلافة ، ولم تكن أعدادهم فى المدينة كبيرة ، ويمكن القول أنهم كانوا أقل عددا من أية طائفة أخرى ، ويتولون الوظائف الهامة ، وعكف بعضهم على التجارة ، وقلة تدير من العاصمة مزارعها الواسعة فى الريف ، وحافظوا على أصولهم التى انحدروا منها ، وحرصوا على أن يتميزوا بألقابهم العربية ، وظلت ذكريات قبائلهم حية فى حكاياتهم وسمرهم ، وهى خصائص أخذت تختفى مع الزمن ، ونتيجة الزواج المختلط ، فقد جاء العرب فرادى عادة ، وكان النصف الثانى من بيوتهم ، زوجة أو جارية أو عشيقة ، إيبيريا فى الأعم الأغلب ، ومن ثم بدأت « الأندلسية » تأخذ طريقها إلى وجدانهم إحساسا ، فأصبح الفرد منهم يحس بأنه قرطبى ، قبل أن يكون مخزوميا أو قرشيا . وبدأ ثقلهم السياسى يضعف مع عبد الرحمن الناصر ، فقد كان ميالا إلى قيام سلطة مركزية قوية ، ورأى المنصور بن أبى عامر بعده خطر قيام طبقة تعتمد على الدم وحده طريقا إلى النبل ، فقرر أن يهبط بهم إلى حيث بقية الناس ، وقضى نهائيا على نظام الجند القبلى ، وأحل مكانه مفهوما جديدا يجعل العصبية للأندلس .

وكان هناك البربر ، من زناتة أو صنهاجة ، وهم أول من دخل الأندلس ، واحتملوا صدمة الفتح الأولى ، واتصلت هجراتهم إليه ، لقرب بلادهم منه ، وتشابه مناخ أوطانهم به ، وكثرة القلاقل السياسية عندهم ، حتى فاقوا العرب عددا ، وأورد لنا ابن حزم فى كتابه « جمهرة أنساب العرب » فصلا عنهم أسماه : « بيوتات البربر فى الأندلس » ، ونجد عنهم معلومات وافرة فى تاريخ ابن خلدون . وقد اتجه معظم البربر الى الريف ، وامتزجوا بالسكان الأصليين ، ولعبوا دورا هاما فى نشر الإسلام ، وآثرت قلة منهم البقاء فى العاصمة ، تعمل فى المهن المتواضعة ، على حين سمت بآخرين مواهبهم ، فتبوأوا أعلى المناصب ، وباشروا نفوذا سياسيا أو علميا أو أدبيا مرموقا : لقد عرف القرن العاشر منهم فى قرطبة أبناء يحيى بن يحيى الليثى ، كبير فقهاء

المالكية ، ومنذر بن سعيد شيخ الخطباء وإمام عبد الرحمن الناصر ، وابن دراج القسطلى شاعر المنصور بن أبى عامر . وحافظ بعضهم على نسبه البربرى ، واصطنع آخرون لهم نسبا عربيا ، على ما سنرى .

أما الكثرة الغالبة من السكان فى قرطبة ، فممن وجدهم المسلمون لحظة الفتح ، ويعودون إلى أصول مختلفة ، لاتينية وقوطية وإيبيرية وسلتية وحتى أفريقية وفينيقية ، وقد أطلق على من أسلم منهم لحظة الفتح اسم « المسالمة » ، وعلى أبنائهم اسم « المولدون » ، وكان منهم الحرفيون وصغار التجار ورجال الأعمال ، وبعضهم كان يعمل فى المزارع التى حول قرطبة ، وهم العنصر الأكثر فعالية فى الاقتصاد ، لأنهم أعرف من غيرهم بالبلد ، وأكثر احتمالا لأجوائه وجوانحه . وقد دعمت الدولة فى سياسة بعيدة النظر هؤلاء المسلمين الجدد وحمتهم ، وفتحت أمامهم باب الأمل والعمل واسعاً وعريضا ، لكى يعملوا ويثروا ويحتلوا مكانتهم فى المجتمع ، وبرزت من بينهم مواهب عظيمة ، وحرص الكثيرون منهم ، كالبربر ، على أن يصطنعوا لهم نسباً عربياً ، عن طريق الزواج والمصاهرة ، أو الولاء ، أو باصطناع نسب مزيف ، وثمة متخصصون فى صنع أشجار النسب يصنعونها ويبيعونها لمن يريد ، هروباً من ماضيهم غير الإسلامى ، وثنياً كان أم مسيحياً أم يهودياً . وكان بينهم من يتعصب لطائفته ، وقد كتب أبو عامر أحمد بن غرسية ، وأصله من البانسك ، رسالة فى فضائلهم والدفاع عنهم .

وقد احتفظ عدد كبير من هؤلاء المولدين بأسماء أسرهم القديمة ، واتخذوا منها ألقابا ، فلدينا ابن بشكوال Ibn Pascual صاحب كتاب « الصلة » وبنو قومس Banu Comes ، وبنو مرتين Banu Martin وبنو غرسية Banu Garcia ، وآخرون كثيرون . وبعضهم عرب اسمه اللاتينى ، فأصبح Félix يدعى سعيداً ، و Victor يدعى الظاهر ، وأخذت الأسماء اللاتينية المستمدة من التوراة الشكل العربى ، فاسم Moisés أصبح موسى ، و Jesuis عيسى ، وهكذا .

ثم السود والصقالبة ، وكانوا أقل عدداً من العرب والبربر ، والسود أقل من الصقالبة ، وهما على النقيض لونا . ويطلق على الرقيق القادم من بلاد السودان اسم العبيد أو السودان ، ولا صلة للتسمية بما يطلق الآن على جنوبى وادى النيل ، وإنما تعنى تلك المناطق التى تمتد من جنوب المغرب وما وراءه من غربى إفريقية ووسطها . وقد اتخذمنهم الخلفاء حرسهم الخاص ، وبلغوا عدداً لا بأس به ، وبخاصة فى عهد الحكم الثانى ، وأصبحوا يكونون جانباً من المهرجانات العامة ، بين فرسان ومشاة ، وبخاصة فى البيعة ، وأكثر منهم المنصور بن أبى عامر ، لأنهم اشتهروا بالقوة والاحتمال ، والقدرة على العدو ، حتى أن البريد ويطلق عليه فى لغة الأندلس الإدارية اسم « الرقاص » كان وقفا عليهم ، وكان يتبع المنصور فى كل حملاته الحربية ، حمل أوامره إلى مرءوسيه فى بقية العاصمة أو بقية الكور .

ولا يزال أحد شوارع قرطبة يحمل اسمهم مترجما حتى يومنا هذا : زقاق السود Calleja de Los Negros .

والسودا وات كن أكثر عدداً من الرجال ، ويتمتعن بشهرة عالية فى الأعمال المنزلية ، وكان الرجال يقدرون فيهن صفات أنثوية لا يجدونها فى غيرهن ؛ وكان اللون الأسود لأبناء من آباء بيض شائعا بين الطبقة الحاكمة والمقتدرة ، « وإنه لشىء يشرف هؤلاء المسلمين أنهم لم يعرفوا التفرقة العنصرية بسبب اللون أبداً ، لا فى العصر الوسيط ، ولا فى أيامنا هذه » .

وكان الصقالبة خصيانا فى أكثر الأحوال ، ويعملون فى حرس الخليفة ، والطريق مفتوح أمامهم إلى المناصب العليا ، وإلى أن يصبحوا فى مرتبة الرجال الأحرار ، رغم أنهم جاءوا إلى الأندلس رقيقا ، وبينهم من احتفظ بلغته ، ومن اعتزل المجتمع ، وحافظوا على خصائصهم ، واتخذوا لهم موقفا خاصا ، رغم أنهم أسلموا ، وفتحوا قلوبهم للمجتمع الذى يعيشون فيه ، وعندما سقطت الخلافة أصبحوا عنصراً مستقلا فى

مواجهة العناصر الأخرى ، وتميزوا بروح التضامن فيما بينهم . وفى البدء كان يطلق لفظ الصقالبة على الذين يؤتى بهم من وسط أوربا ، ويقوم اليهود على خصائهم فى مدينة بجانة ، وكل سكانها من اليهود ؛ وكان يهود فرنسا يباشرون المهنة فى مدينة « فردان » ، ويربحون من ورائها أموالا طائلة ، وفيما بعد أطلق الاسم على كل الرقيق الأبيض اللون ، حتى أولئك الذين يؤتى بهم من جنوب فرنسا أو شمال الأندلس.

وكان الأسيرات القادمات من بلاد الإفرنج، فى جنوب فرنسا ، أو من مقاطعات قطلونية والباسك وغاليسية فى شمال الأندلس ، حظوة كبيرة فى قرطبة ، لأنهن بيضاوات البشرة ، شقراوات الشعر ، زرقاوات العيون ، ومن بينهن كان الأمراء يختارون عشيقاتهم المدللات ، فإذا أنجبت الواحدة منهن صارت أم ولد ، أى حرة . وقد مارست الجوارى نفوذا كبيراً فى الحياة السياسية ، ولم يكن اتخاذهن وقفا على الأمراء ، وإنما شاع ذلك فى بيوت الخاصة ، وأعلى الطبقة الوسطى ؛ من كبار الموظفين ؛ ورجالات الدولة ، وأبنـاء البيوتات . وتميز هؤلاء الجوارى بالثقافة والرقة والصقل ، وأدين دورا بالغ الأهمية كأمهات ، وأعطين المجتمع الأندلسى طابعه الخاص ، ولعبن دورا كبيراً فى تحسين مكانة المرأة فى الأندلس. ويحمل شارع فى قرطبة اسم شارع الرقيق ، أو الجوارى Las esclavas حتى يومنا .

هذه العناصر على اختلافها كانت تأخذ طريقها ، تدريجيا ، نحو اندماج كلى ، سهله ومهدله ، عقيدة واحدة كانت تظل الناس جميعا ، وتحدد لهم أنماط السلوك فى حياتهم العامة والخاصة ، دون أى تميز طبقى أو عنصرى . ويمكن القول ، إن القرن العاشر الميلادى ، فى النصف الثانى منه تقريبا ، وفى ظل السلام الوارف الذى بسط عبد الرحمن الناصر ربوعه على الأندلس ، تمت عملية المزج بين العناصر الأصيلة والوافدة ، وكنت إذا مررت فى الشوارع ، أو تجولت فى الأسواق ، تلتقى بأناس ألوانهم مختلفة ، شقر وسمر وبيض وسود ومخاطون ، يعيشون فى وئام مع بعضهم ، ومع الذميين من الكاثوليك

واليهود ، « ونجم عن اختلاط الأجناس ، وتجاور الديانات ، جو سمح جميل ، إنسانى وشفاف ، هو الجو الحضارى نفسه الذى نعرفه فى بغداد كما تصورها قصص ألف ليلة وليلة ، خالصا من كل مايرتبط بالشرق فى أذهاننا ، من جلافة يشوبها الغموض » .

فى هذا القرن كانت الخلافة الفاطمية فى المغرب ، والعباسية فى بغداد ، تدفع بالأندلس دفعاً نحو الإنطواء على نفسه ، فكلاهما كان خصماً سياسياً عنيفا ، ومن ثم كان اهتمامه بالوحدة الفكرية للعالم الإسلامى فاترا . وبدأ يتكون فى وجدان الأندلسى شىء غامض ، بإحساس ذاتى مبهم ، من المبالغة أن نقول عنه إنه قومى ، لأن مثل هذا التعبير يتجاوز ماأحس به الأندلسيون ، ولايتناسب وطبيعة العصر ، ويمكن تحديده بأنه إحساس بوحدة الأمل والغاية والحياة بين سكانه ، وبعزلة جغرافية شعورية عن بقية العالم الإسلامى ، ومع شدة العداء السياسى من الفاطميين والعباسيين أخذ هذا الاتجاه شكلا أكثر قوة ووضوحا ، وبدأ الأندلسى ، إيبريا من شبه الجزيرة ، أو قادما من المغرب ، أو مهاجرا من المشرق ، يحس بشخصيته الأندلسية ، ويعبر ابن حزم عن هذا المعنى تعبيرا قويا فى بيت من الشعر :

وياجوهر الصين سحقا فقد غنيت بياقوتة الأندلس

لقد بدأ الأندلسيون يستشعرون أندلسهم وطنا ، يتعبدون به دواما ، يتغزلون فيه شعراء حين يكونون على بساطه ، ويحنون إليه وجدا حين يكونون بعيدين عنه ، وليس مهما بعد ذلك أنه لم يعرفوا كيف يدافعون عنه فيما بعد . ذلك أن الأندلسى كان كثير الكلام وجدلا ، قوى الإحساس بالطبيعة وشاعرا ؛ قادرا على التمتع بالحياة ، ولكنه كأى متحضر تنقصه الخشونة التى تجعل منه قادرا على الصمود والنضال .

وكان هناك المستعربون ، وتطلق عليهم المصادر العربية ، نصارى الذمة ، أو العجم ، أو مجرد كلمة نصارى ، وتطلق عليهم المصادر اللاتينية

اسم : المستعربون ، أخذا من من كلمة مستعرب Mozarabes مضافا إليها أداة الجمع فى اللاتينية ، وهم أولئك الذين ظلوا على كاثوليكيتهم ، ولكنهم فيما عدا ذلك شاركوا المسلمين الكثير من عاداتهم وثقافتهم وألوان حياتهم . ولانستطيع أن نستنتج عددهم ، ومن الواضح أنه كان يقل مع الزمن بفضل تقدم الإسلام ، وباستثناء رؤسائهم الدينيين ، فإن المصادر العربية قلما تتحدث عنهم . وبينهم من كان يتمتع بوضع اجتماعى ممتاز ، ولم يكونوا يتعرضون لأية مضايقا من الخليفة ، أو من المنصور بن أبى عامر عندما أصبح حاجبا ، ولا من الخاصة ، وبرهنوا من جانبهم على انضمامهم للمجتمع ، وحاولت الدولة أن تكسب ثقتهم ، ولكن ما إن نمت القوى الكاثوليكية فى الشمال حتى اهتز ولاؤهم ، وأصبح مجاملة وتقية وانتظاراً أكثر من إخلاصا .

وقد استقلوا بشئونهم الدينية ، أصبح لهم رئيس ينتخبونه من بينهم ويعينه الخليفة ، يدعى قومس Comes ، وقاض ينظر فى أمورهم الخاصة ، يعرف باسم «قاضى العجم» ، وكان لهم كنائس فى داخل المدينة ، وعدد آخر خارجها ، تضم كل واحدة منها ديراً ، وفى هذا القرن ألغى القرار الخاص بحظر دق أجراس الكنائس ، وكانوا يؤدون طقوسهم الدينية فى بهرج يشد إليه فضول حتى أولئك المسلمين الطيبين من العامة ، ووصف لنا ابن شهيد ، فى رسالته « التوابع والزوابع » ، انطباعه عن دير زاره . ورغم أن بعض المسلمين كان يتهم رجال الدين الكاثوليك بأنهم ليسوا طيبين ، وأن بعض الأديرة تحولت إلى حانات للشراب ، وأمكنة لممارسة الحب ، لايمكن القول بأنهم جميعاً ، وبأن الأديرة كلها كانت كذلك . وأياً ما كان الأمر فإن مثل هذا الاتهام لم يكن بسبب أية متاعب للمستعربين.

وبعض هؤلاء المستعربين كان على ثقافة عالية ، وموضع ثقة الخليفة ، وكان ربيع بن زيد ، واسمه المسيحى Recemundo يستخدم

اللاتينية والعربية بمستوى واحد ، وقد اتخذ منه الناصر سفيراً متجولا له : فأرساله إلى أوتون الأول Otoni ملك جرمانيا ، ثم إلى القسطنطينية وسورية للحصول على مواد يحتاج إليها فى بناء مدينته الزهراء ، ولكى يضفى عليه احتراماً زائداً فى سفارته عينه أسقفاً لمدينة إلبيرة ، وهى وظيفة شرفية ، فلم يكن لديه فى الواقع وقت ليباشر وظيفته هذه . وكان الحكم الثانى يقدر معارفه الفلسفية والفلكية ، وله ألف ربيع بن زيد كتابه « الأنواء » وكان المستعربون طبقات اجتماعية مختلفة ، يقف على قمتها النبلاء الذين ينحدرون من القوط ، ثم الطبقة العليا وكانت وقفاً على رجال الدين ويأتى العبيد فى نهاية السلم ، وكان المسيحيون واليهود شأنهم كالمسلمين يمتلكون الرقيق .

وكان فى قرطبة يهود ، ومعلوماتنا عن نشاطهم فى القرن العاشر محدودة للغاية ، وما وصلنا من أخبار وفيرة عنهم يعود إلى القرن التالى ، ونقد وجدت عنتاً فى الوصول إلى معرفة عدد من اليهود كان يعرفهم ابن حزم ، وتتردد أسماؤهم فى « طوق الحمامة » . ومع ذلك يمكن القول أنهم كانوا يكونون جالية كبيرة ، تقطن حياً خاصاً بها ، يقع بين شارع القنطرة وقصر الخلافة ، ويحمل اسمهم . وأن أحد أبواب المدينة كان يطلق عليه اسم باب اليهود ، وأن الربض المجاور له يحمل اسمهم أيضاً ، ويبدو رغم صمت المؤرخين أنه حى يهودى آخر يختلف عن الأول ، وربما كان موطن الأغنياء منهم .

وقد سكن اليهود الأندلس قبل مجىء المسلمين ، وساعدوهم فى حركة الفتح ، واعتنق بعضهم الإسلام ، وظلت غالبيتهم على دينها ، وفيما بعد جاء يهود آخرون من أفريقية وآسيا . وقد تركوا أحراراً تماماً فى حياتهم الدينية ، وكانت لهم بيعهم داخل المدينة ، ولهم مجالس شورى يرعى شئونهم يسمى « الجماعة » . ورئيس هو الصلة بينهم